المحاكمات التاريخية الكبرى

٤ ـ الحركة النهلستية
ومصرع القيصر اسكندر الثاني

صفحة رائعة من صحف الثورة على الطغيان

للأستاذ محمد عبد الله عنان

خاتمة البحث

وكانت مرافعة جليابوف عن نفسه خاتمة المناظر العاصفة في تلك القضية الشهيرة. وكان هذا الزعيم الثوري المضطرم حسبما صفه مكاتب التيمس، يحدج قضاته بنظرات ملتهبة كأنها نظرات حش يُطارد، وكانت ألفاظه وعباراته الرنانة تحدث أثرها في لمحكمة والنظارة؛ وكلما ضجت الجلسة ألقى على الجمهور نظرته الملتهبة تى يعود إلى سكينته. ولما انتهى من مرافعته، أذنت المحكمة تهمين تباعاً بأن يقول كل منهم كلمته الأخيرة. فكرر كباكتشش أقواله عن ثبات حزبه السلمية، وأنهم لم يسفكوا الدم بة في السفك، ونوه بأنه قد اخترع جهازاً للطيران يرجو أن سب له بعد موته إذا أخرج إلى حيز التطبيق. ونفت صوفيا ي نفسها ما اتهمها به النائب من القسوة وفساد الخلق واحتقار أي العام. وحاول ريسا كوف أن يكرر نظرياته السياسية؛ صر ميخايلوف على نفي اشتراكه في الجريمة

وبذا اختتمت المرافعات في هذه القضية الشهيرة ولم تستغرق الواقع سوى ثلاثة أيام. وفي صباح يوم ٢٩ مارس أصدرت كمة حكمها وهو يقضي باعدام المتهمين الستة شنقاً. فاستقبل همون مصيرهم في سكينة وثبات. وهل كانوا يتوقعون مصيراً خر؟ إن الحكم بالاعدام كان قاعدة مقررة في جميع الجرائم ياسية التي جرت في الفترة الأخيرة، ولم يفلت من هذا المصير وع سوي قلائل من الثوريين الذين اشتروا حياتهم بالاندماج سلك البوليس السياسي؛ ولم يطعن أحد من الستة المحكوم يهم في الحكم بطريق النقض، ولكن ريسا كوف وميخايلوف رفعا طلباً بالعفو لم تر المحكمة أن تراجع القيصر في شأنه؛ وحاول ريسا كوف ليلة التنفيذ أن يلجأ إلى الخطوة الأخيرة فعرض أن يندمج في البوليس السياسي وأن يفتدي حياته بالعمل على مقاومة الارهاب والمرهبين، وأفضى بأسماء وبيانات جديدة عن الثوريين ونظم الحركة الثورية، فلم يقبل طلبه وخاب مسعاه

وقدمت جسيا هلفمان إلى المحكمة بلاغاً قالت فيه إنها حامل لأربعة أشهر، وطلبت إرجاء التنفيذ حتى تضع حملها؛ فانتدبت لفحصها لجنة طبية أيدت دعواها، فقررت المحكمة أن ترجئ التنفيذ حتى تضع حملها ويمضي على وضعها أربعون يوماً

* * *

وكان التنفيذ في اليوم الثالث من ابريل سنة ١٨٨١ في نحو الساعة الثامنة من صباح ذلك اليوم حمل المتهمون الخمسة على عربتين عاليتين إلى ميدان سيمونفسكي حيث نصبت المشنقة وكانت والدة صوفيا قد سمت إلى رؤيتها فلم توفق إلى ذلك إلا عند خروج الموكب من السجن. وكان المتهمون قد ألبسوا أردية سوداء، وأوثق كل منهم في مكانه في العربة، وظهره إلى الخيل وقد وضعت على صدره لوحة كتب عليها بحروف بيضاء ظاهرة: «قاتل الملك» وكان يتبع المحكوم عليهم عربة بها خمسة قسس؛ وكان الموكب رهيباً يحف به حرس قوي من الفرسان والمشاة، وقد اصطف الجند على طول الطريق من السجن حتى ميدان التنفيذ. وكان الميدان غاصاً بعشرات الألوف من النظارة إذ كان تنفيذ الاعدام يجري في ذلك العصر بطريقة علنية؛ وكان الشعب يهرع دائماً إلى رؤية هذه المناظر المؤسية. وفي نحو الساعة التاسعة وصل موكب المحكوم عليهم إلى ساحة التنفيذ فأنزلوا من العربات وتلا عليهم سكرتير مجلس الشيوخ الحكم؛ ثم قرعت الطبول إيذاناً بالاجراءات الأخيرة، فكشف النظارة رؤوسهم وتقدم القسس من المحكوم عليهم وفي يدهم الصلبان فقبلوها. وأبدى المحكوم عليهم في تلك اللحظات الرهيبة ثباتاً يثير الاعجاب والخشوع إلا ريسا كوف فانه كان مضطرباً ممتقع اللون؛ وبعد إجراء المراسيم الدينية قبّل كل صاحبه وودعه الوداع الأخير

وقبل الساعة العاشرة بقليل تقدم الجلاد فرولوف بثوبه الأحمر إلى فراشه يحيط به معاونوه وألبس المحكوم عليهم الأكفان والقلنسوات . وبدئ التنفيذ باعدام كبالتشش ثم تلاه ميخايلوف فصوفيا فجليابوف فريساكوف ؛ وحدث حين إعدام ميخايلوف أن قطع حبله وسقط على النطع ثلاث مرات قبل أن يزهق ، فثار الجمهور لهذا المنظر المروع ، وعلت غمغمة السخط والروع . ولكن الجلاد أتم مهمته بهدوء ولم يحدث حادث . وكان هذا آخر إعدام علني في روسيا القيصرية . وكان له في الرأى العام أيما أثر . ووجه كاتب روسيا الأكبر يومئذ الكونت ليون تولستوي إلى القيصر اسكندر الثالث خطاب احتجاج على هذه الفظائع المثيرة

وأما جيسيا هلفمان فكان لها قصة ألمية أخرى ، ذلك أن حزب إرادة الشعب لجأ إلى الرأى العام الخارجي ليحاول إنقاذ هذه الفتاة المنكودة من براثن الموت ، وأذاع شاعر فرنسا وكاتبها الأكبر يومئذ فكتور هوجو في الصحف الفرنسية خطاباً مفتوحاً إلى القيصر يناشده فيه الرأفة بآلام الفتاة ؛ ورددت صحافات القارة هذا النداء . وفي الثالث من يوليه سنة ١٨٨١ عدلت عقوبة الاعدام إلى الأشغال الشاقة المؤبدة . وفي شهر سبتمبر نقلت جيسيا إلى مستشفى السجن ووضعت طفلة لم يعرف مصيرها . وتوفيت الأم بعد ذلك بأشهر قلائل في فبراير سنة ١٨٨٢ من جراح أصابتها وقت الوضع وقيل إنها أحدثت فيها عمداً

* * *

هذه صفحة مؤسية مروعة معاً من صحف الثورة على الطغيان ، وقد كانت النهلستية بلا ريب من أعظم الحركات التحريرية العنيفة التي عرفها التاريخ ، وكانت من أحفلها بمواطن النضال الدموية وكانت القيصرية من جانبها من أشد النظم الطاغية إمعاناً في القسوة والعنف وإخماد النزعات الحرة . وكان هذا النضال الذي يخضب أرض روسيا بدماء الفريقين ، ويدفع بآلاف من الشباب المستنير إلى ظلمات السجن والنفي مسألة حياة أو موت للقيصرية ولروسيا الجديدة معاً ؛ وقد سار هذا النضال حيناً بعد مصرع اسكندر الثاني ومصرع قاتليه . ولكن القيصرية ضاعفت أهبتها ووسائلها لقمع الارهاب . ومع أن المرهبين استطاعوا أن ينزلوا بالقيصرية وأعوانها عدة ضربات دموية أخرى وأن يدبروا اعتداءين جديدين على حياة القيصر ، فان القيصرية استطاعت بوسائلها الذريعة أن تمزق شمل الحركة الثورية ؛ وركدت ريح النهلستية في أواخر القرن الماضي بعد أن هلكت زهرة دعاتها وأنصارها ؛ ثم استعادت شيئاً من نشاطها في أوائل هذا القرن ، ولكن القيصرية استطاعت من جانبها أن تجتنب العاصفة بتحقيق بعض الاصلاحات الدستورية المنشودة ، وإصدار الدستور الروسي الجديد سنة ١٩٠٦ . على أن المثل الثورية التي بعثتها النهلستية في روسيا الجديدة لم تخمد جذوتها بل لبثت على اضطرامها حتى مهدت الحرب الكبرى أخيراً لانفجارها الرائع في سنة ١٩١٧ . وعندئذ لم تقف العاصفة عند سحق القيصرية وكل نظمها القديمة ، بل دكت نظم المجتمع الروسي القديم كله وقامت البلشفية على انقاضه تطمح إلى اضرام نار الثورة العالمية وتحقيق مثل ماركس ولنين

كانت النهلستية حركة فريدة بين الحركات التحريرية . وكانت وسائلها العنيفة من طراز لم يعهد التاريخ كثيراً من أمثاله ؛ ذلك أنها جعلت من الثورية ديناً تدين به الشبيبة المستنيرة ، ينبث إلى أعمق عقولها وأرواحها ، وجعلت من الحرية هيكلا مقدساً تتفانى هذه الشبيبة في الحج إليه ، وتسقط في سبيله صرعى لا تلوى على شيء إلا أن تموت في سبيل العقيدة الجديدة ؛ وقد كانت ضحايا النهلستية عظيمة فادحة . ومن الصعب أن تقدم عن هذه الضحايا بياناً شافياً لأن الأساليب الهمجية والرسائل السرية التي كانت تتبعها القيصرية في مقاومة الحركة كانت تحصد المئات والألوف في خفاء وصمت ؛ يهلكون ألوفاً في أعماق السجون أو في معسكرات الاعتقال النائية في أعماق سيبريا ، هذا عدا من حصدتهم المشانق وهم وحدهم ألوف ؛ وليس من المبالغة أن نقول إن المناظر الدموية التي يقدمها إلينا كفاح النهلستية ، تفوق في روعتها مناظر عصر الارهاب ابان الثورة الفرنسية ؛ ذلك أن الثورة الفرنسية كانت بالرغم من اضطرامها وعنفها قصيرة الأجل محدودة

المدى ، وكانت آثارها المعنوية تفوق أحداثها المادية بكثير . أما الثورة النهلستية فقد استطالت نحو أربعين عاماً ؛ تضطرم آنا وتخبو آنا ، ولكنها لبثت داعاً تلتهم فرائسها من الجانبين . هذا إلى أن نزعة الكفاح في الحركة الثورية الروسية كانت أعرق أصولاً وأبعد مدى . وبينما نرى الثورة الفرنسية تستسلم بعد أعوام قلائل إلى الحركة العسكرية الرجعية وتغدو أداة ذلولا في يد جندي طموح هو نابليون ، إذا بالحركة الثورية الروسية تمضي في طريقها برغم كل مقاومة حتى تفوز بتحقيق كل مثلها وغاياتها . بيد أنه كان ظفرا سلبيا فقط ، وكان ظفراً قصير المدى ؛ فقد مهدت الحركة النهلستية كما قدمنا إلى الانقلاب العظيم الذي درج زعماؤه وقادته في غمارها وتغذت عقولهم وأرواحهم بتعاليمها ومثلها ، وكان ظفر الثورة البلشفية كاملا شاملا ، ولكن شتان بين تلك المثل الحرة الاصلاحية التي نشدها النهلستية ، وبين ذلك الهدم الشامل الذي انحدرت اليه ليه الثورة البلشفية . أجل سقطت القيصرية صرعى المثل الجديدة أعلنت سيادة الشعب أو الكتلة العامة في عبارات ضخمة ، نودي بالحريات والحقوق العامة ، واستطاعت الثورة الجديدة أن تحتفظ بانتصارها الظافر مدى حين كان شعارها فيه مكافحة الخطر الخارجي ؛ ولكنها ما كادت تثبت أقدامها حتى استحالت بسرعة لى نوع جديد من الطغيان لا يقل في أساليه ووسائله فظاعة ن أساليب القيصرية ووسائلها ؛ ولم تلبث أن غدت سيادة شعب اسماً بلا مسمى ؛ واستطاعت الزعامة الجديدة أن تفرض لطانها المطلق على ذلك العالم الروسي القديم الذي كان يطمح إلى الم جديد من النور والحريات المثلى ؛ وانتهت الثورة التحريرية د كفاح طويل إلى تلك النتيجة المحزنة التي أشرنا إليها في فاتحة ذا البحث . ذلك أن النظم التي تسود روسيا الآن باسم البلشفية ست في الواقع إلا صورة من أشنع صور الطغيان الدموي التي رفها التاريخ (١)

(تم البحث — النقل ممنوع)

محمد عبد الله عنان

(١) رجعنا في كتابة هذا البحث إلى تاريخ روسيا لرامبو (بالفرنسية) إلى دائرة المعارف الفرنسية وكتاب Soukhomline عن القضايا الشهيرة روسيا (بالفرنسية) وإلى كتابنا « تاريخ الجمعيات السرية »

في تاريخ الأدب المصري

ابن الصيرفي

أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان الصيرفي

مات بعد سنة ٥٤٢

للأستاذ محمد كرد علي

كان ابن الصيرفي من كتاب الدولة الفاطمية ، ومن عظماء المنشئين والمؤلفين من المصريين في عهده ؛ جزل حظه من البلاغة والشعر والخط الجميل ، وأخذ صناعة الترسل عن ساعد بن مفرج صاحب ديوان الجيش ، ثم انتقل منه إلى ديوان الانشاء وبه الحسين الزبدي ثم تفرد بالديوان . ولابن الصيرفي تصانيف تجعله فوق أقدار رؤساء الدواوين وكتاب الملوك والسلاطين ، ومنها في الأدب والتاريخ والترسل كتاب « عمدة المحادثة » و « عقائل الفضائل » و « استنزال الرحمة » و « منائح القرائح » و « رد المظالم » و « لمح الملح » ومنها « الاشارة إلى من نال الوزارة » و « قانون ديوان الرسائل » وهذان الكتابان مطبوعان . وله غير ذلك من التصانيف منها اختيارات كثيرة لدواوين الشعراء كديوان ابن السراج وأبي العلاء المعري وغيرهما . وله شعر جيد لكنه اشتهر بالكتابة . وقد ضمن كتابه الاشارة إلى من نال الوزارة ذكر من تقدم من سفراء الدولة ووزرائها وسلاطينها ، ولم ير أن يتوسع في إشباع الموضوع قائلاً : « إذا كان الاستقصاء لا يليق بكل تصنيف لا سيما إذا خدم به سلطان ينفق أوقاته في تدبير دولة وإقامة سنة واستضافة مملكة ، وإذا بقيت من زمانه فضلة استعجل بها جزءاً من الراحة ، يستعين به على ما يستأنفه من مهماته » بدأه بترجمة الوزير ابن كلس الآمري وإليه أهدى كتابه . وفي هذا الكتاب مثال واضح من سوء إدارة الفاطميين أخريات أيامهم ، وما توسعوا فيه من الألقاب ، وما أولعوا فيه من المصادرات ، وما كان لهم وعليهم . وكان من لوازم الدعاء الذي يستعمله ابن الصيرفي في كل سجل ورسالة وتقليد وكتاب ، بل يستعمله الاسماعيلية الفاطميون عامة أن يقال بعد الصلاة على النبي